

إحتفالية أحمد لطفى السيد، أستاذ الجيل

29 نوفمبر 1999

إحتفاليات الجمعية الخيرية الإسلامية بروادها

أحمد لطفى السيد والإحتلال البريطانى

بقلم الدكتور / رعوف عباس

عندما إحتل الإنجليز مصر عام 1882، كان أحمد لطفى السيد قد تجاوز العاشرة من عمره ببضع شهور، ولكنه كان يعى - بلا ريب- دلالات هذا الحدث الجلل، ويتفتح وعيه على حالة الإحباط والقنوط التى عانى منها المصريون طول العقد الأول من عهد الإحتلال.

والتي كانت نفس الفترة التى عبر فيها أحمد لطفى السيد من الفتوة إلى الشباب، وهو العقد الذى أوصله إلى مدرسة الحقوق، التى كانت عندئذ معقل الشباب الذى أثقلت وجدانه هموم الوطن، وشغله مستقبل بلاده وكيفية تحقيق أملها فى الحرية والاستقلال.

وكان لابد لأحمد لطفى السيد أن يحدد موقفه من ذلك الهم الوطنى العام منذ تفتح وعيه السياسى مع مطلع الشباب، وان يختار لنفسه موقع المشاركة فى العمل على تحقيق الاستقلال المنشود.

كان الإحتلال البريطانى قد دعم وجوده فى البلاد عن طريق إقامة نوع من التوازن بين القوى الاجتماعية صاحبة المصالح الاقتصادية فى البلاد، فاحتضن طبقة كبار الملاك الزراعيين، وحرص على إقامة نوع من التوازن بين شرائحها المختلفة، ليتمكن من لعب دور الحكم بين بعضها البعض، فلم يسمح لأى منها بأن تحيد عن الخط الذى رسم لها، أو أن تتحد مع بعضها البعض فى عمل موجه ضد الإحتلال.

وأثمرت تلك السياسة طوال العقد الأول من عهد الإحتلال، فران الركود على الحياة السياسية المصرية طوالها، ولم يرتفع فيها صوت بالمعارضة، سوى ما قام به بض الذوات الذين استهوتهم فكرة " الجامعة الإسلامية" فأسسوا جريدة " المؤيد " عام 1889 للترويج لها، ولتنفذ -بحذر شديد- سياسة الإحتلال التى روجت لها جريدة "المقطم" لسان حال الإحتلال.

وبوفاة الخديوى توفيق، ، وتولية ابنه عباس حلمى الثانى (8 يناير 1891) دبّت الحياة فى الساحة السياسية وتغير الموقف من اليأس إلى الأمل، ومن المسالمة إلى المعارضة، فقد كان الخديوى الجديد لا

يود أن يكون دمية في يد الإحتلال، فأثار أزمات مع اللورد كرومر - المعتمد البريطاني ومهندس السياسة الإنجليزية في مصر- كان لها صداها عند الجماهير المصرية، فأكسبته شعبيه أثارت قلق الإنجليز، ودعتهم إلى إعادة الخديوى الشاب إلى حظيرة الطاعة والخضوع لمشورة كرومر، وعندما أدرك عباس حلمى الثانى أن الاستمرار فى الصدام سيكلفه عرشه، بدأ يتراجع عن خطة المواجهة المباشرة للإحتلال، ويستعيز عنها بتشجيع العناصر الوطنية الشابة من المثقفين على القيام بنشاط سياسى ضد الوجود البريطانى فى مصر، ولكن ذلك التشجيع كان سرياً، حتى يتجنب الخديوى عاقبة ذلك.

فى هذا السياق كان دخول أحمد لطفى السيد مجال العمل السياسى الموجه ضد الإحتلال البريطانى. ويقول أحمد لطفى السيد انه ألف جمعية سرية عام 1896 بغرض تحرير مصر من الإحتلال الأجنبى اشترك معه فيها عبد العزيز فهمى، وأحمد طلعت، وحامد رضوان، ومحمد بدر الدين، والدكتور عبد الحليم حلمى، وعلى بهجت، والصيدلى محمد عبد اللطيف. ولا نعرف شيئاً عن تفاصيل نشاط هذه الجمعية، ولكنها تعنى أن أحمد لطفى السيد وأبناء جيله من الشباب شمروا عن ساعد الجد لحمل لواء المقاومة ضد الإحتلال بعد أن فترت همم جيل شباب الثورة العربىة، وتبددت قدرتهم على المواجهة، مما يدل على نزعه جياشة للكفاح الوطنى، ففى نفس الوقت تقريباً كانت هناك جمعية سرية أخرى أسسها مصطفى كامل لنفس الغرض.

وكان عباس حلمى الثانى يتلمس مواطن الإقدام عند ذلك الشاب النابه، فيعمل على إعداد من يصطفيه منهم للدور الذى يتوسمه فى خدمة طموحة إلى السلطة عن طريق تشجيع العمل الوطنى، فعندما سمع بتكوين " جمعية تحرير مصر" سعى إليها عن طريق مصطفى كامل - الذى كان قد اصطفاه واحتضنه- فاتصل الأخير بلطفى السيد، واخبره بأن الخديوى يعلم كل شئ عن جمعيتهم السرية، وانه لا يجد تعارضاً بين أهدافها وما يسعى إليه الخديوى لتأسيس "حزب وطنى" تحت رئاسة الخديوى. فأبدى لطفى السيد موافقته على العمل المشترك مع الخديوى، وقابل لطفى السيد الخديوى بالفعل وتحدث معه عن أغراض الحزب الذى يريد تأليفه، وطلب الخديوى منه أن يسافر إلى سويسرا لكى يكتسب الجنسية السويسرية ثم يعود إلى مصر ليحرر جريدة تقاوم الإحتلال البريطانى محتتماً بالامتيازات الأجنبية التى تضمنها له جنسيته الجديدة. وكان التجنس بجنسيتها لا يحتاج إلا إلى الإقامة بها سنة واحدة.

وبذلك كان الخديوى يلعب لعبة تقسيم الأدوار على الشابين الوطنيين مصطفى كامل ولطفى السيد، الأول يبيت الدعاية ضد الإحتلال بأوروبا، والثانى يقاوم سياسة الإحتلال على صفحات جريدة تصدر فى مصر مستظلة بالامتيازات الأجنبية.

وبدأ العمل المشترك بعد مقابلة لطفى السيد للخديوى، حين اجتمع نخبة من الشباب المثقف فى منزل محمد فريد، وألّفوا الحزب الوطنى كجمعية سرية رئيسها الخديوى وأعضاؤها مصطفى كامل ومحمد فريد

وسعيد الشيمى (ياور الخديوى) ، ومحمد عثمان، ولييب محرم، ولطفى السيد، ومن الطريف أنهم تسموا بأسماء حركية، فكان "الشيخ" هو الاسم الحركى للخديوى، وكان "أبو الفداء" اسماً لمصطفى كامل، و "أبو مسلم" اسماً للطفى السيد.

وسافر لطفى السيد إلى سويسرا لاكتساب الجنسية السويسرية وفق الاتفاق الذى تم مع الخديوى، حاملاً توصية من صديقه الأثرى على بك بهجت إلى الأستاذ نافيل عالم الآثار السويسرى لبيسر له أمور الحياة هناك. ويذكر لنا لطفى السيد تأثره بحديث دار بينه وبين نافيل قال الأخير له فى:

" لا تظن أن أوروبا تساعدكم على انجلترا. . لأننى أرى أن مصر لا يحررها إلا المصريون".

ويبدو أن كلمة نافيل قد تركت أعمق الأثر فى الاتجاه السياسى لأحمد لطفى السيد، وفى الخطة التى انتهجها بعد ذلك، ونبذ من أجلها الخطة التى اتفق عليها مع الخديوى.

وفى الوقت الذى بقى فيه مصطفى كامل على أسلوبه فى الكفاح الوطنى الذى يعتمد على تأليب الدول الأوروبية ضد بريطانيا لتحقيق الجلاء، نرى أحمد لطفى السيد يختار طريقاً مختلفاً يقوم على نظرة سياسية إلى المسألة المصرية تختلف عن نظرة مصطفى كامل إليها، أساسها "مبدأ مصر للمصريين"، وهو مبدأ لم يكن جديداً على الوجدان المصرى، بل جاء على لسان عرابى من قبل بمعنى أن يكون للمصريين نصيب فى حكم بلادهم. ولا يبدوان المعنى اختلف كثيراً عند لطفى السيد عنه لدى عرابى، إلا بقدر ما حدث من تغير فى مصر بين الجيلين، جيل عرابى وجيل لطفى السيد. بل إن المعنى اللفظى للعبارة لم يتجاوز اعتبار أن يكون خير مصر لأبنائها وحكمها لهم وحدهم، فليس لعثمانى أو إنجليزى أن يحكمها، وليس لأسرة غريبة عليها أن يكون لها ولاء على أبنائها، وإذا كانت مصر لا تعنى فى الواقع إلا أهلها، فإن عليهم وحدهم يقع عبئ العمل على تحريرها.

ولكن كيف يستطيع المصريون أن يحرروا بلادهم وهى تقع تحت وطأة الإحتلال الثقيلة ؟

يبدو أن لطفى السيد لم يستقر على خطة معينة حتى بعد عودته من سويسرا بعدة سنوات، فقد عاد من سويسرا بعد عام دون أن يحصل على جنسيتها لاعتراض السلطان العثمانى على ذلك (على نحو ما ذكره له مصطفى كامل)، وقدم تقريراً إلى الخديوى يقول فيه : " إن مصدر لا يمكن أن تستقل إلا بجهود أبنائها وإن المصلحة الوطنية تقتضى أن يرأس سمو الخديوى حركة شاملة للتعليم العام".

وكان هذا رأى الشيخ محمد عبده (الذى إنقاه لطفى السيد بجنىف وتأثر به) فقد جعل من التربية والتعليم السبيل إلى الإصلاح، ولا ريب أن لطفى السيد أخذ هذه الفكرة عنه، وهى إعداد الأمة بالتربية والتعليم إعداداً يمكنها من النهوض والتقدم حتى تستطيع أن تحرر نفسها بنفسها.

وانصرف لطفى السيد إلى الانخراط فى الوظائف العامة حتى استقال عام 1905 و اعتكف بقريته، ثم اشتغل بالمحاماة قليلاً، وانصرف عنها عام 1906. وخلال تلك السنوات حدثت تطورات كثيرة أثبتت فشل فكرة الاعتماد على أوروبا لتحقيق الجلاء عن مصر، فقد سوت بريطانيا خلافتها مع فرنسا بتوقيع الوفاق الودى عام 1904، وانفردت بذلك بمصر، وظهر الخديوى ولاءه للإنجليز وانصرف عن تشجيع العمل الوطنى، فاضطر مصطفى كامل إلى الاهتمام على دعم العناصر الوطنية له، وإلى تعبئة الطلبة على وجه الخصوص لدعم نضاله.

وفى خصم أزمة طابا عام 1906 التى أيد فيها مصطفى كامل وغالبية المصريين المطالب التركية، على حين اشتد الإنجليز فى معارضة الأتراك باسم الحفاظ على حقوق مصر وعلى حدودها الشرقية، وانتهت الأزمة بتراجع تركيا وانسحاب قواتها من طابا، وتسوية مسألة حدود مصر الشرقية على نحو ما ارتآه الإنجليز.

كانت تلك الأزمة دافعا لتحول لطفى السيد إلى العمل السياسى إذ رأى أن المصريين لم يفيدوا من عبرة الأحداث، وظلوا يتطلعون إلى التماس العون من غيرهم -فرنسا تارة وتركيا تارة أخرى- وان الأولى بهم أن يعتمدوا على أنفسهم ويحملوا الأمر على عاتقهم، ولن يكون ذلك إلا إذا تبينوا حقيقة مصالحهم ومتى وكيف يستطيعون تحقيقها.

ولعل ذلك كان وراء مفاتحته لمحمد محمود باشا فى أمر إنشاء جريدة مصرية حرة تنطق بلسان مصر وحدها دون أن يكون لها ميل خاص إلى تركيا أو الخديوى أو الإنجليز، وان تكون الجريدة المقترحة ملكاً لشركة من الأعيان أصحاب المصالح الاقتصادية الحقيقية فى البلاد الذين كان يصفهم اللورد كرومر فى تقاريره بأنهم راضون عن الإحتلال معتدلون، وان المعارضة إنما تأتى من جانب من ليس لهم مصالح حقيقية فى مصر كالأفندية والأتراك.

ودعا لطفى السيد إلى اجتماع بفندق "الكونتنتال" عدداً من أصدقاءه هم : محمد محمود، عمر سلطان وأحمد حجازى ومحمود عبد الغفار وتحدثوا عن الحركة الوطنية وتبدد أمل المصريين فى الاعتماد على فرنسا بعد عقد الاتفاق الودى (1904). وما يجب أن يفعله المصريون بالاعتماد على أنفسهم فى المطالبة بالحرية والاستقلال.

لم يكن لطفى السيد زعيماً شعبياً جيد مخاطبة الجماهير على نحو ما كان يفعل مصطفى كامل، ولذلك فضل أن يتخذ من الكتابة التى تقرع الحجة بالحجة أدواته لتوجيه المصريين إلى الاعتماد على أنفسهم، ومن هنا كانت فكرة إصدار "الجريدة" على يد شركة من الأعيان وتولييه رئاسة تحريرها. كان لطفى السيد مفكراً وصاحب رؤية قبل أن يكون سياسياً، وأثر بفكره فى خاصة المثقفين فكان صاحب اتجاه سياسى

قدر له أن يلعب الدور الأكبر فى توجيه ثورة 1919، ولكنه لم ينجح فى أن يجعل من حزب الأمة (الذى تأسس بعد صدور الجريدة بعدة شهور) حزباً قومياً تلتف حوله الأمة كلها، بل كان حزباً نخبياً. وظل ما ينشره لطفى السيد من كتابات بالجريدة يتخذ طابعاً تنويرياً، ولا ينال استحسان بعض مساهمى شركة الجريدة وأعضاء حزب الأمة.

أتجه لطفى السيد إلى المطالبة بالاعتدال فى مواجهه الإحتلال البريطانى وعدم معاداته، والنظر بموضوعيه إلى ما قدمه من إصلاحات كانت لها آثار ايجابية ملموسة، مع توجيه النقد إلى ما شاب سياسته من سلبيات، ورأى أن الاستقلال لا يتحقق إلا بالتدرج وعند استكمال معاداته، وهى النهوض بالتعليم، وترقيه الزراعة وعدم إهمال الصناعة والتجارة، فالتمية الإقتصادية والتعليم عنده هما دعامة الاستقلال. ومن هنا كان إفساحه المجال بالجريدة أمام طلعت حرب ليدعو على صفحاتها إلى إنشاء بنك وطنى كما كان يوسف نحاس وغيره يكتبون حول سبل النهوض بالاقتصاد الوطنى باعتباره دعامة الاستقلال.

ورغم أن الدستور كان مطلباً أساسياً للحركة الوطنية فقد دعا لطفى السيد -ومعه حزب الأمة- إلى توسيع اختصاصات مجالس المديرىات ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية بالشكل الذى يجعل الآراء التى تبديها هذه المجالس ذات وزن فى مسائل التعليم والزراعة حتى يمكن الوصول - تدريجياً- إلى المجلس النيابى الذى يوافق حاله البلاد السياسية، ورأى أن الأعيان لهم النيابة الطبيعية عن الأمة بحكم كونهم رؤساء العائلات الكبيرة، ومن ثم لهم حق المشاركة فى إدارة أمور البلاد مع الحكومة.

وأكد لطفى السيد رفضه التام للحكم الفردى سواء كان الحاكم هو الخديوى أو المعتمد البريطانى، فلا يجب أن ينفرد الحاكم بصناعة القرار دون استشارة أصحاب المصالح الذين يؤثر هذا القرار على مصالحهم. ومن ثم كانت حملة لطفى السيد على سياسة الوفاق التى قامت بين الخديوى والمعتمد البريطانى جورست (بعد رحيل كرومر)، وهى حملة عبرت عن موقف الأعيان من الخديوى كما عبرت عن موقف المثقفين تجاه تلك السياسة، فهم يرون أن الوفاق يعنى زيادة فى سلطات الخديوى ونفوذ الشخصى على حساب نفوذ الأعيان وحرصهم على المشاركة فى السلطة. ولا يعنى ذلك أيضاً التسليم للإحتلال بامتلاك مقاليد الأمور وحده.

وإذا كان اتجاه لطفى السيد فى العمل الوطنى هو الذى تفرد بالساحة السياسية عند نهاية الحرب العالمية الأولى، فجاء تشكيل " الوفد المصرى" من رجال حزب الأمة فى غالبيته، وكان اتجاههم هو السعى لتحقيق الاستقلال كلما وجدوا للسعى سبيلاً، واعتمادهم لمبدأ التفاوض لا الصدام، كان هدير ثورة 1919 معبراً عن عجز ذلك الاتجاه المعتدل الميال إلى التدرج فى تحقيق الاستقلال عن بلوغ الغاية التى ينشدها، والتى تحقق للأمة ما تصبو إليه من حرية واستقلال.

